﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨﴾ [التّوبة: 28]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بينَ دَحر أعداء الله، وبينَ صيانة المسجد الحرام عن نجس الشِّرك وأهلِه

لـمَّا ذكر اللهُ في بَدْء السُّورة الكريمة البراءةَ مِنَ الكفَّار، وشَدَّد في ذلك بذكر بعضِ فضائحِهم وقبائحِهم الَّتي تُوجِبُ البراءةَ منهم، بيَّن في هذه الآية العِلَّة الَّتي دعت إلى هذه المباينة وهذه المقاطعة، أنَّهم نجسٌ.

ومِنَ المناسبة - أيضًا - أنَّه بعد أن أبطلَ اللهُ ﷻ شُبْهَتَين مِنَ الشُّبَهِ الَّتي يُبْديها مَن ضَعُفَ عَنِ امتثالِ أمرِه، بِمُباينَةِ أهلِ الشِّرْكِ والبراءَةِ منهم؛ ذكرَ سبحانَه إبطالَ شُبْهَةٍ ثالثةٍ، وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ لـمَّا أمرَ عليَّ بنَ ابنَ أبي طالبٍ ﷺ، أَنْ يَقرأَ على مُشْركي مكَّةَ أوَّلَ سورةِ التَّوبةِ، وما تضمَّنتْهُ مِنْ نَبْذِ عَهْدِهم إليهم، وأنَّ اللهَ بريءٌ منهم ورسولُهُ ﷺ؛ قال ناسٌ: يا أهلَ مكَّةَ سَتَعْلَمونَ ما تلقوْنَهُ مِنَ الشِّدَّةِ؛ لانقطاعِ السُّبُلِ، وفَقْدِ الحُمولاتِ، فقالَ اللهُ سبحانَه ردًّا على هذه الشُّبْهَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾[1].

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾: (الشِّينُ والرَّاءُ والكافُ): تدورُ اشْتِقاقاتُها على لُزومِ شَيءٍ شَيْئًا؛ إمْساكًا بِجامِعٍ دَقيقٍ، ومنه: شِراكُ النَّعْلِ؛ لكونِهَ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/20 - 21.

ملازمًا للنَّعْلِ، مُمْسِكًا إيَّاها، وكذا شَرَكُ الصَّيْدِ، ومِنْ هذا التَّلازُم: الشَّرِكةُ؛ وهي خُلْطَةُ المِلْكَيْنِ[1]، والإشراك باللّه جلَّ وعلَا: مصدرُ أشركَ إشراكًا، وهو أن يدعوَ للّه شريكًا[2]، ودخلتِ (الباء) في قول اللّه تعالى: ﴿أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 151]؛ لأنَّ معنى (أشرك باللّه): قرن باللّه غيرَه، وفيه إضمارٌ، والباءُ للإلصاق والقِران[3]، وحقيقةُ الشِّرْكِ شَرْعًا: تَسْوِيَةُ غَيْرِ اللّهِ باللّهِ، في شيءٍ مِن خَصائِصِ اللّهِ تعالى، وهو الشِّركُ العظيم، والمُشْرِكونَ هُمُ المُتلبِّسونَ بهذا الشِّرْكِ[4]، يقال: أشرك فلانٌ باللّه، وذلك أَعْظَمُ كفرٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: 48].

2) ﴿نَجَسٌ﴾: (النُّونُ والجيمُ والسِّينُ): تدورُ تصريفاتُها على ضِدِّ الطَّهارَةِ، يُقال: شيءٌ نَجسٌ - بِفَتْحِ الجيم وكَسْرِها - هو القَذَرُ[5]، والنَّجاسَةُ: القذارَةُ؛ وهي نوعان؛ أحدهُما: ما يُدْرَكُ بالْحَواسِّ. والآخَرُ: ما يُدْرَكُ بِالْبَصيرَةِ، ومِنْ هذا قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[6]، وثوبٌ نَجِسٌ، بالكسر: اسمُ فاعل، وبالفتح: وصفٌ بالمصدر للمُبالغة، وفي اللِّسان: النَّجْسُ والنِّجْسُ والنَّجَس: القَذِرُ مِنَ النَّاس ومِن كُلِّ شَيء[7]، والجمع: أنجاس، وقيل: النَّجَس يكون للواحد والاثنين والجمع والمؤنَّث بلفظ واحد، فإذا كَسَروا ثَنَّوا وجمعوا وأنَّثوا، فقالوا: أنجاسٌ ونجِسة[8].

3) ﴿ٱلْحَرَامَ﴾: (الحاءُ والرَّاءُ والميمُ): تدورُ تصريفاتُها على المَنْعِ والتَّشديد، ومنه: الحَرامُ وهوَ ضِدُّ الحَلالِ[9]؛ وذلك أنَّ الحلالَ مأذونٌ في إتْيانِه، بخلافِ الحرام فيُمْنَعُ منه، ومنه قولُهُم: ذو رَحِمٍ مُحَرَّم، وهو الذي لا يَحِلُّ نِكاحُهُ، ومنه سُمِّيَ مسْجِدُ الكعْبَةِ: المَسْجِدَ الحَرامَ، كما في قوله سبحانَه: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾؛ لكَوْنِهِ لا يحِلُّ انتهاكُهُ[10].

---

(1) الرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (شرك).
(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (شرك).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (بوأ).
(4) ابن قاسم العاصميّ، حاشية كتاب التَّوحيد: ص 15، ومحمد الخميِّس، شرح الرِّسالة التَّدمريَّة، ص: 89.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نجس).
(6) الرَّاغب، المفردات: (نجس).
(7) الشَّافعيّ، المسند: 1/21.
(8) ابن سيده، المحكم: (نجس).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حرم).
(10) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (حرم).

4) ﴿عَيْلَةً﴾: (العَيْنُ والياءُ واللَّامُ): تدلُّ اشْتِقاقاتُها على معنى الحاجَةِ والفَقْرِ والفاقَةِ[1]، ومنه قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: 8]، وقولُ النَّبيِّ ﷺ في حَديثِ جبريلَ المَشْهورِ: «وأَنْ تَرَى الحُفاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشّاءِ، يَتَطاوَلونَ في البُنْيانِ»[2]، فالعالَةُ: الفقَراءُ، وهيَ جَمْعُ عائِلٍ[3]، ومنه قولُهم: عالَ الرَّجُلُ؛ إذا افْتَقَرَ[4]، ومِنْ هذا البابِ: العَيْلَةُ، في قول اللهِ سبحانَه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾، وهيَ الفَقْرُ[5]، قال الشَّاعر[6]:

فَمَا يَدْرِي الفَقِيرُ متى غِناهُ *** وما يَدْرِي الغَنِيُّ متى يَعِيلُ؟

وفي آخر حديث وصيَّة سعدِ بن أبي وقاص ﷺ، مرفوعًا قال: «**إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِياءَ**، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عالَةً يَتَكَفَّفونَ النّاسَ»[7]، والعالة: جمع عائل، وهو الفقير، يقال: عال يعيل عَيْلَةً، أي: افتقر.

5) ﴿يُغْنِيكُمُ﴾: (الغَينُ والنُّون والحَرْفُ المعتلُّ): تدور كثيرٌ مِن اشتقاقاتها على معنى الكِفايَةِ، ومنه قولُهم: فلانٌ لا يُغْني غَناءَ فُلانٍ، أي: لا يكفي كفايَتَهُ[8]، والغَناءُ: الكِفايَةُ والإجْزاءُ[9]، وقولُ اللهِ سبحانَه: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ﴾ أي: يكْفيكُمْ حاجاتِكُمْ، فلا يقَعُ عليكُمُ الفَقْرُ؛ إذِ الفقْرُ ملازِمٌ لِلْحاجَةِ.

6) ﴿فَضْلِهِۦٓ﴾: (الفاءُ والضَّادُ واللَّامُ): تدور اشتقاقاتُها حولَ الزِّيادة في الشَّيء[10]، واسْتِعْمالُ هذا الأصلِ: في الخَيْرِ[11]، فالفَضْلُ: الزِّيادَةُ في الخَيْرُ[12]؛ حِسِّيَّةً كانتِ الزِّيادةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عيل).
(2) مسلم في صحيحه، الحديث برقم: (8).
(3) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (عيل)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (عيل).
(4) ابن الأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 1/141.
(5) أبو عُبيد الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (عيل).
(6) البيت لم يُعْزَ لقائل، وقيل: هو لأحيحة بن الجلَّاح، من قصيدة في جمهرة أشعار العرب، ص: 647، وفي معاني القرآن: 1/255، وينظر: ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (علي).
(7) أخرجه البخاريُّ في صحيحه، برقم: (2591).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غني).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (غني).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فضل).
(11) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/302.
(12) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 2/45.

أو معنويَّةً[1]، وذهب الرَّاغبُ إلى أنَّ الفَضْلَ لا يختَصُّ بالخَيْرِ، بَلْ يقَعُ الفضْلُ محمودًا ومذمومًا، واستعمالُهُ في المحمودِ أكْثَرُ وأَغْلَبُ[2]، وقولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، معناهُ: يتفضَّلُ عليكُم بِما هو أَوْسَعُ وأَكْثَرُ[3].

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآية نادى اللهُ تعالى على أهل الإيمان؛ يا مَعْشَرَ مَن آمَنَ باللهِ تعالى، وصدَّق رسولَه ﷺ، ما المشركونَ إلَّا نجسٌ وقَذَرٌ، فلا تُمكِّنوهُم مِنَ الاقترابِ مِنَ المسجِدِ الحرامِ، بدخولِهِم الحرَمَ بعَد الذي نادَى فيهِ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه بسورةِ براءَة، وهو العامُ التَّاسِعُ مِنَ الهِجْرَةِ، وإن خِفتُم فاقةً وَفقرًا، بسَبَبِ مَنْعِ المُشْركينَ مِنْ أَنْ يَقْرَبوا المَسْجِدَ الحرامَ؛ فإنَّ اللهَ ﷻ سَيُعَوِّضُكُم عنها، ويَكْفيكُم مِن فَضْلِهِ إنْ شاءَ، إنَّ اللهَ سبحانَه عَليمٌ بِحالِكُمْ، حَكيمٌ في تَدْبيرِ شُؤونِكُم[4].

مَـنْـعُ المشركين مِـــن دخـــول الـحَـــرَم، مع عـــدم الـخـوف مِـنَ الفقر؛ لأنَّ الـلـه تـعـالى هو المُغْني

## ❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

### عِلَّةُ الفَصْلِ والاستئناف:

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ عمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ اسْتِئْنافًا بقَصْدِ الرُّجوعِ إلى غَرَضِ إبْعادِ المُشْرِكين عنِ المسجِدِ الحرامِ، الذي دلَّ عليه قولُ اللهِ سبحانَه قَبْلُ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التَّوبة: 17]، ولتأكيد الأَمْرِ بإقصائِهِم عنِ المسجِدِ الحرامِ، مع التَّنصيص على عِلَّةٍ أُخْرَى تقتضي هذا الإقْصاءَ؛ وهيَ كَوْنُهم نجَسًا، وحيثُ إنَّ المسجد الحرام رمزٌ للطُّهر والقداسة، وقد قال

التَّنْصيصُ عَلى عِـلَّـةِ إقْـصـاءِ المُشْـرِكـينَ عـنِ المَسْجِدِ الحَرامِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (فضل).
(2) الرَّاغب، المفردات: (فضل).
(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 10/356.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/190 - 192، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 191.

تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: 125]، ولـمَّا أُنزِل فيه الوحيُ الخاتم، وعمَّ الإسلام شِبْهَ الجزيرةِ العربيَّة برُمَّتها، وطُهِّرت الكعبةُ من رجس الأصنام، وطُهِّر الحرمُ من نجس الطُّقوس الّتي كانت تُمارَس في الجاهليَّة، أُنزِلَ الحُكمُ بمنع المشركين مِن ارتياد المسجدِ الحرام، بعد نزول هذه الآية.

### سِرُّ اختلافِ التَّعبير في الموضوع الواحد:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، وقوله تعالى السَّابق: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التّوبة: 17]، اختلف التَّعبير فيهما، مع كونهما في موضوع واحد، هو منع المشركين مِن دخول المسجد الحرام، ففي كلا الموضعين منعٌ للمشركين مِنَ المسجد الحرام، وإن اختلفت صورةُ المنع؛ ففي الآية الأولى: منعٌ مِنَ العِمَارة، وفي الثَّانية: نهيٌ عن القُرْب، مع اختلاف العلَّة في كلٍّ منهما؛ ففي الموضعِ الأوَّل: عُلِّلَ إبعادُهُم بكونهم شاهدينَ على أَنْفُسِهم بالكُفْر، فلَمْ يكونوا أهلًا لعِمَارةِ المسْجِدِ الحرام، الذي بُنِيَ أَصالةً لإقامَةِ التَّوحيد[1]، وعلى هذا فلا يَجوز تمكينُهم مِنْ عمارَته؛ لطهارَته، وعُلِّلَ في الثَّاني: بأنَّهم نجسٌ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ فلا يقربوه فضلًا عن عمارته، فالنَّهي عنِ القرب، يَلْزَم منه النَّهيُ عنِ العمارة.

تنوُّعُ الأسلوبِ القرآنيِّ في التَّعبير عنِ الأحكام، ثراءٌ وإيضاحٌ وبيانٌ

### نُكْتَةُ النِّداءِ بِـ (يا):

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، جاءَ النِّداءُ بِـ (يا) في قولِ اللّه عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وهي في الأصل لِنداء البَعيد، ونداءُ

إظهارُ العِنايَةِ بالحَثِّ على تطهير المَسْجِدِ الحَرامِ مِنَ المُشْرِكينَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/159.

اللّٰه سبحانه لِعبادِهِ، نِداءٌ مِنَ الخالِقِ إلى المَخْلوقين، فَجديرٌ أَنْ يَكونَ بأداةِ النِّداء لِلْبَعيدِ، وفي التَّعبير بأداة النِّداءِ لِلْبَعيد نكاتٌ؛ أولاها: بُعْدُ ما بين الخالِقِ والمَخْلوقِ مِنَ المَكانة. وثانيها: أنَّه نِداءٌ مِنَ الخالِقِ، وهو مُقْتَضٍ أعلى العلوِّ وأبعدَهُ. وثالثها: عِظَمُ شأنِ موضوعِ النِّداءِ، وهو الحَثُّ على إبعاد المُشْرِكينَ عَنِ المَسْجِدِ الحَرامِ.

### سِرُّ النِّداءِ بِـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

النِّداءُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ في قول اللّٰه جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فيه ضَرْبٌ مِن تَقْوِيَةِ النِّداءِ، وَوَجْهُ ذلك: أنَّ لفظَ (أَيّ) لا يُفْهَمُ المرادُ مِنْهُ إلَّا باسمٍ بعَدَهُ يُزيلُ غُموضَهُ، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبْهام إلى الإيضاحِ والبَيانِ، وفي هذا نَوْعُ توكيدٍ، وفي اقترانِهِ بـ (ها) التَّنبيهِ: زيادةٌ في التَّوكيد؛ إذِ النِّداءُ في الأصْلِ يُرادُ به التَّنبيهُ.

الِانْتِقالُ مِنَ الإبْهامِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ، مِنْ مُقَوِّياتِ المَعاني

### بَراعَةُ النِّداءِ بِوَصْفِ الإيمانِ:

وقَعَ النِّداءُ بوصْف الإيمانِ في قول اللّٰه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لكَوْنِه يَقْتَضي تَعْظيمَ شعائرِ الإسْلام، ومنها: الشَّعائرُ الزَّمانيَّةُ والمَكانيَّةُ، ومِن أَعْظَمِ معالِمِ الإسْلامِ المَكانيَّةِ المَسْجِدُ الحَرامُ، فالنِّداءُ بوصْف الإيمانِ تحريضٌ على تعظيمِه وتوقيرِه، ومِن صوَرِ تَعْظيمِه: إبعادُ المُشْرِكينَ عنه؛ وذلك لما يُشْعِرُ به وصفُ الإيمانِ مِنَ الاسْتِعدادِ لامتِثالِ ما يأمرُهُم اللّٰهُ تعالى به؛ وَذلك لأنَّهُ أخصُّ أوصافِهِمْ تُجاهَ أوامرِ اللّٰهِ ﷻ، كما قالَ سبحانَه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ [النّور: 51].

الإيمانُ يقتضي الالتزامَ الصَّارم بالأَوامِرِ، والاجتنابَ القاطعَ للنَّواهي

### نُكْتَةُ مَجيءِ جُمْلَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا:

جاءتِ جملةُ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا، في قول اللّٰه سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ حثًّا لِلْمُخاطَبين على تَرسيخ إيمانِهم، والاستمرارِ عليه، وفيه: إشعارٌ بِأَنَّ وصْفَ الإيمانِ ثابتٌ لهم، وأنَّهُمْ مُتَحَقِّقونَ

حَثُّ أَهْلِ الإيمانِ على تَرسيخِ إيمانِهِمْ، والثَّباتِ عليه

به، وإشارةٌ إلى انصرام زمنِ المغالبة، بالحَرْب الضَّروس، والكَيْدِ المتلاحِقِ، الذي كان عند الكفَّار يملأ النُّفوس، وقد جاء الفتحُ، فانبجس عهدُ التَّمكين للإسلام وأهلِه، فكان طبيعيًّا أن تُصانَ حُرْمةُ الحَرَم، وأن يُطَهَّر المسجدُ الحرامُ مِنَ الدَّنس، باعتبار ذلك إيذانًا بعهدٍ جديدٍ، طُوِيتْ بمقدَمِه صفحةُ الماضي المرير.

### فائِدَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الإيمانِ:

حَقيقَةُ الإيمانِ مُسْتَقِرَّةٌ في نُفوسِ المؤْمِنينَ، وَهُمْ مُقِرُّونَ بِجَميعِ ما تقتضيه

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ (آمَنوا)، مِن قول اللهِ سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وهو المُؤْمَنُ به، وفي ذلك مَسْلَكان؛ أحدهما: ظهورُ أفرادِ المؤمَنِ به؛ وذلك لأنَّ الإيمانَ له حقيقةٌ شَرْعيَّةٌ مَعْروفةٌ، فإذا أُطْلِقَ لفظُ الإيمانِ، انصرَفَ الذِّهْنُ إلى تلك الحَقيقةِ، مِن غَيْرِ افتقارٍ إلى التَّنصيصِ على مُتَعَلَّقِه. والآخَرُ: إرادَةُ العُموم؛ وذلك لأنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مُؤْذِنٌ بالعُمومِ، والمعنى: آمَنوا بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ به شَرْعًا.

### بلاغَةُ القَصْرِ بِلفظ: (إنَّما):

نَجاسَةُ المُشْرِكينَ أَمْرٌ بَيِّنٌ، لا يَنْبَغي جَهْلُهُ أو التَّغاضي عنه

القَصْرُ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ مجازيٌّ؛ لِعَدَمِ وجودِ القَصْرِ الحَقيقيِّ في قَصْرِ المَوْصوفِ على الصِّفة، والقصْدُ منه: المبالغَةُ في نجاسَةِ المُشْرِكينَ، فكأنَّه لا صفةَ لهم إلَّا النَّجاسَةَ، وأمَّا قولُ الرَّازيِّ: "كَلِمَةُ (إنَّما) لِلْحَصْرِ، وهذا يَقْتَضي أن لا نَجَسَ إلَّا المُشْرك"[1]؛ فمَحَلُّ نَظَرٍ؛ لأنَّ هذا الكَلامَ، إنَّما يَرِدُ لَوْ كانَ القصْرُ قصْرَ صفةٍ على الموصوفِ، بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (إنَّما النَّجَسُ المُشْرِكونَ)، والواقِعُ أنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، مِن قَصْرِ المَوْصوفِ على الصِّفَةِ، وليس فيه نفيُ النَّجاسَةِ عن غيرِ المُشْرِكينَ، وقد عبَّر القرآنُ الكريم بأداة القصْرِ (إنَّما) في قوله سبحانَه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ لبيانِ أنَّ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/22.

نجاسَتَهُمْ أمرٌ واضحٌ بيِّنٌ، لا يَنْبَغي لِأَهْلِ الإيمانِ أن يجْهَلوهُ؛ لأنَّ أصلَ استعمالِ (إنَّما)، هو في الشَّيءِ الذي لا يجْهَلُهُ المخاطَبُ ولا يُنْكِرُهُ[1]، ولا يتردَّد فيه؛ فكأنَّهم لا وَصْفَ لهم إلَّا النَّجاسة.

**دلالَةُ (ال) في لفظ: ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾:**

اتِّصافُ جَميعِ المُشْرِكينَ بِالنَّجاسَةِ المَعْنَويَّةِ، حكمٌ مُستوعِبٌ لكلِّ مَن أشرك

اللَّامُ في ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ مِن قول اللهِ سبحانَه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، يُرادُ بِها الاستغْراقُ، أي: أنَّ جميعَ أهلِ الشِّرْكِ نجَسٌ في كلِّ دينٍ ومِلَّةٍ؛ لأنَّهم يَجمعون بينَ الكفر والشِّرك، ولذلك يرى بعضُ العلماء أنَّ المشركين في سورة التَّوبة يُراد بهم الكفَّار، ويَجوزُ أن تَكونَ اللَّامُ دالَّةً على تماديهم في الشِّرك، فصار عنوانًا لهم، بِدَليلِ اسْتِمرارِهم عليه[2]، فيَخْرُجُ منه ما ليس متماديًا فيه، وهو كُلُّ مَن تلَبَّسَ بشيءٍ مِن أفرادِ الشِّرْكِ الأصْغَرِ، ولا تَعارُضَ بينَ المَعْنَيَيْنِ، بل تَجوزُ إرادَتُهُما معًا، ويكونُ المعنى: إنَّما المُشْرِكونَ الذين تمادَوا في الشِّرْكِ نَجَسٌ كُلُّهُمْ.

**سِرُّ إيرادِ الوَصْفِ مَصْدَرًا:**

لُزومُ النَّجاسَةِ للمُشركين، وعَدَمُ انْفِكاكِها عَنْهُمْ في كلِّ حينٍ

ورَدَ الوصْفُ ﴿نَجَسٌ﴾ بصيغَةِ المَصْدَرِ، في قول اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ مبالغَةً في اتِّصافِهِم بالنَّجاسَةِ، فكأنَّهم عَيْنُها، ويَجوزُ أن يكون ذلك على حذفِ مضافٍ، والتَّقديرُ: إنَّما المُشْرِكونَ ذَوو نجَسٍ، وذلك لِخُبْثِ بواطِنِهم، وفسادِ عقائِدِهم[3]، ويَحْتَمِلُ أن تَكونَ كلمَةُ ﴿نَجَسٌ﴾ صِفَةً مشبَّهَةً، وهي اسمٌ لما كانت النَّجاسَةُ صفةً ملازِمَةً له، لا تَنْفَكُّ عنه بحالٍ[4]، ولا تنافيَ بينَ هذهِ الدَّلالاتِ؛ إذْ كُلُّها دالٌّ على لُزومِ النَّجاسَةِ لَهُمْ، ولصوقِها بِهِمْ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/429.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/57، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/269.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/159.

### دلالة التَّعبير بالمصدر ﴿نَجَسٌ﴾ بصيغة المفرد:

الدِّينُ رمزُ الطُّهر والنَّظافة، والانسلاخُ منه خبثٌ ونجاسةٌ

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالمصدر: ﴿نَجَسٌ﴾، دونَ الجمع: (أنجاس)، مع سبق ما يدعو لذلك مِنَ السِّياق، في قوله: ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، وباللَّحاق في قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ﴾ بصيغة الجمع؛ لأنَّ التَّعبير بالمصدر أبلغ، ولأنَّه يشمل المفردَ والمثنَّى والجمع والمذكَّرَ والمؤنَّثَ، وقد "وُصِفُوا بالمصدر مبالغةً، كأنَّهم عينُ النَّجاسة، أو همُ ذَوو نجسٍ لخُبث باطنِهم، أو لأنَّ معهم الشِّركَ الذي هو بمنزلة النَّجَس، أو لأنَّهم لا يتطهَّرون ولا يغتسلون، ولا يجتنبونَ النَّجاساتِ"[1].

### بَلاغَةُ التَّعبير بينَ الحقيقة والمَجاز:

الشِّرْكُ نجسٌ كلُّه، لا فرقَ فيه بينَ ظاهرٍ وباطنٍ

في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، ذهب بعضُ العلماء، إلى أنَّ النَّجاسَةَ نجاسَةٌ معنَويَّةٌ، وليسَتْ حسيَّةً، بقَرينَةِ تعليقِ هذا الوصْفِ بهم بوصْفِ الشِّرْكِ[2]، وفي هذا مجازٌ بالاستِعارَةِ؛ حيثُ شُبِّهَ خُبْثُ الباطِنِ وفسادُ الاعْتِقادِ، بالنَّجاساتِ القَذِرَةِ، بجامِعِ الفسادِ وعدَمِ الصَّلاحِ في كلٍّ، فيكون هذا استعارَةً تصريحيَّةً أصليَّةً، إذا كان لفظُ النَّجَسِ مصدرًا، أو تبعيَّةً إذا كان صفةً مشبَّهَةً[3]، وجوَّزَ بعضُ أهلِ العِلْمِ أن تكونَ النَّجاسَةُ حقيقيَّةً، وذلك لكونِهم لا يتطَّهرونَ، ولا يجتَنِبونَ النَّجاساتِ، فكانَتِ النَّجاساتُ ملابِسَةً لهم[4]، ولهذا نهى اللهُ ﷻ المؤمنينَ عن نكاح المشركات، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ﴾ [البقرة: 221]، وعن إنكاح المُشركين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ﴾ [البقرة: 221]، كما نهى عن تناول طعامهم.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/57.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/159.
(3) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 5/374.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/269.

### براعَةُ التَّصْويرِ في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾:

بَـراعَـةُ تَصْـويـرِ القُـرْآنِ الكَـريـمِ لِـلْـمَـعـاني، مِـن أرفعِ التَّصوير

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، تصْويرٌ بديعٌ، حيثُ جُعِلَ المُشْرِكونَ كأنَّهم بأرْواحِهم وماهيَّاتِهم، نَجَسٌ يمْشي على الأرضِ، فيتجنَّبهُ المتطَهِّرونَ ويتَحاشَوْنَهُ[1]، والعلماءُ في نجاسة المشرك على مذهبين؛ الأوَّل: أنَّ المشرك نَجِسُ الذَّات، كما رُوِيَ عن ابن عبَّاس ﷺ، والحسن البَصريِّ رحمه اللّه، وذهب إليه بعض الظَّاهرية والزَّيديَّة، وقد استدلُّوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. والثَّاني: وهو قول الجمهور مِنَ السَّلف والخَلَف، ومنهم أبو حنيفةَ ومالكٌ والشَّافعيُّ وأحمدُ بنُ حنبل، إلى أنَّ الكافر غيرُ نَجِس الذَّات، ودليلُهم على ذلك: أنَّ اللّه تعالى أحلَّ للمؤمنين أكل طعامهم، في قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: 5]، وثبتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ ما يفيد عدمَ نجاسة ذواتِهم، حيث إنَّه أكلَ في آنيتهم، وشَربَ منها، وتوضَّأ فيها، وأنزلهم في مسجده، وما وَجَدَ في ذلك حرجًا[2].

### دلالَةُ الخَبَرِ في الآية:

تَحْقيرُ المُشْرِكينَ وَإِهـانَـتُـهُـمْ، بِإِبْـعـادِهِـمْ عَن مَجامِعِ الخَيْرِ

قولُ اللّهِ سبحانَه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ جُمْلَةٌ خبريَّةٌ، يُرادُ بِها مَعَ الإعلامِ بِمَضْمونِها، تحقيرُ المُشْرِكينَ وإهانَتُهُم، بإبْعادِهِم وإقصائِهِم عَن مَجامِعِ الخَيْرِ، وذلكَ لأنَّ خُبْثَ الاعتقادِ، أَقْرَبُ لِتَحْقير صاحبِها مِن قَذارةِ الذَّات[3]، ويُذْكَر أنَّ "النَّبيَّ ﷺ أَمَرَ أبا بكر ﷺ، إذ أَمَّرَهُ على الحَجِّ سنةَ تسع، أن يُبَلِّغ النَّاسَ أنَّه لا يَحُجُّ بعدَ ذلك العام مُشْرِكٌ، ثمَّ أَمَر عليًّا ﷺ أن يَتْبَع أبا بكر، فيقرأَ على النَّاس أوائلَ سورةِ براءَة، يومَ الحَجِّ الأكبر، وأن يُنادِيَ بألَّا

(1) طنطاويّ، التَّفسير البسيط: 6/244.
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/399.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160.

يَحجَّ بعدَ ذلك العامِ مشركٌ، وقد كانت هذه الآيةُ أبلغَ مِن مَنْعِ المشركين مِنَ الحَجِّ"[1].

**سِرُّ التَّعبير بلفظ: ﴿نَجَسٌ﴾، دون: (يَتَنَجَّسونَ):**

الشِّركُ نجسٌ، يخوض في وَحْله سفهاءُ العقائد والعقول

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، نجد أنَّ التَّعبير آثرَ لفظ ﴿نَجَسٌ﴾، دونَ (يتنجَّسونَ) أو (ينْجَسونَ)؛ لأجل عقيدة إشراكه، فالنَّجَس وَصْفٌ لازم له، بملازمة الشِّرك له؛ فلا ينفكُّ عنه إلَّا بزوال الشِّرك، أمَّا الفعل: (ينْجَسون) أو (يتَنَجَّسونَ)، فلا يؤدِّي هذا المعنى؛ لأنَّه قد يكون جسُده نظيفًا لا يُسْتَقْذر، وقد يكون على غير ذلك، بأن يكون جسدُهُ مُلطَّخًا بالنَّجاسات، فهذا يناسبه الفعليَّة؛ لأنَّه أوقع النَّجاسةَ على نفسه، أو اكتسبها مِن خلال عوائدِهم وبيئتِهم.

**سِرُّ التَّعبير بلفظ: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ﴾، دون: (فَلا يَدْخُلوا):**

تدقيقُ استعمالِ اللَّفظ في السِّياق، يَعْكِس سُموَّ الإعجازِ البيانيِّ

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾، آثر سياقُها التَّعبير بالنَّهي عنِ القُرب دون الدُّخول؛ لأنَّه أبلغ، فلو جاء التَّعبير بالنَّهي عنِ الدُّخول، لكان مقصورًا على أمر الدُّخول فقط للمسجد الحرام، وهذا غيرُ مُراد، بل المرادُ ألَّا يَحُجُّوا ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهليَّة، وبعضُ شعائرِ الحجِّ ليست داخلةً في المسجد الحرام، بل هي خارجة عنه؛ كالوقوف بعرفة، والمبيتِ بالمزدلفة، ورمي الجمرات، ونحو ذلك، ولهذا فتعبيرُ القرآنِ بالنَّهي عنِ القُرب هو الأبلغ، وفيه دلالة على أنَّه يجب تطهيرُ ما حولَ المسجدِ مِن مظاهر الشِّرك، فضلًا عنِ المشركين.

**دلالَةُ (الفاءِ) في قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ﴾:**

الشِّـرْكُ بِاللهِ تعالى سَبَبُ إبعادِ المشركين عنِ المَسْجِدِ الحَرامِ

الفاءُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ تَفْريعيَّةٌ؛ لترتيبِ ما بَعْدَها على ما قَبْلَها، فقَدْ فُرِّعَ على

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/240.

نجاسَتِهم النَّهْيُ عَن قُرْبانِ المسْجِدِ الحرام، والمعنى: إذا كانوا نَجَسًا بسَبَبِ شِرْكِهم؛ فلا يَنْبَغي لهم دخولُ المَسْجِدِ الحرامِ[1].

### دلالَةُ النَّهْيِ في قولِه: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟﴾:

المُبالَغَةُ في مَنْعِ المُشْرِكينَ مِن قُرْبِ المَسْجِدِ الحَرامِ

(لا) في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ ناهيَةٌ؛ بدَليلِ جَزْمِ المُضارعِ بَعْدَها، والمرادُ بالنَّهي: المبالغةُ، أو المنعُ مِن دخولِ الحَرم، أو النَّهي عنِ الدُّخول مطلَقًا، أو المنعُ عنِ الحَجِّ والعُمرة[2].

### نُكْتَةُ إخراجِ صورةِ النَّهي للمسلمين في صورةِ نَهيِ المشركين:

تلوينُ الأساليبِ في الخطابِ القرآنيِّ يُؤكِّد إعجازَه وتَفَرُّدَه

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، هذا النَّهْيُ الواردُ في هذه الآية الكريمة، ظاهرُهُ أنَّه للمُشْرِكينَ عن قُرْبِ المسْجِدِ الحرام، إلَّا أنَّ هذا الظَّاهِرَ غيرُ مرادٍ، والمقصودُ: نَهْيُ المسلمينَ عن تَمْكينِهم مِنْ ذلك، كما يَدلُّ عليه سياقُ الآيَةِ، فإنَّها قَدْ صُدِّرت بنداءِ المؤمنينَ، فقال سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، والغرضُ مِن هذا النِّداء، المبالغَةُ في النَّهْي، بأن يَمْنَعوهُمْ مَنْعًا باتًّا قاطِعًا، ووجهُ ذلك: أنَّهُمْ جُعِلُوا مُكلَّفينَ، بانْكِفافِ المُشْرِكينَ عَنْ قُرْبِ المَسْجِدِ الحَرام، فهو مِن بابِ قولِ العَرَب: (لا أَرَيَنَّكَ هُنا)[3].

### النَّهْيُ عَن قُرْبِ المَسْجِدِ الحَرامِ بَيْنَ الحَقيقَةِ والمَجاز:

نَهْيُ المُشْرِكينَ عن دُخولِ المَسْجِدِ الحَرامِ، هو نَهْيُ مُقارَبَتِهِمْ له

قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، فيه النَّهْيُ عَن قُرْبِ المشْرِكينَ مِنَ المسجِدِ الحرام، يجوزُ أن يُرادَ بِهِ حقيقتُهُ، وإنَّما جاءَ النَّهْيُ عَنِ المقاربَةِ خوفًا مِنَ المواقعَةِ، كالذي في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/269، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3273.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/57.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/429، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 5/376، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160 - 161، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3273.

[الإسراء: 32]، ويجوزُ أن يكونَ النَّهيُ عَن قُرْبِ المسْجِدِ الحرامِ مُرادًا بِهِ النَّهيُ عَنِ الحجِّ والاعتمارِ، فمَعْنَى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾، أي: لا يَحُجُّوا ولا يعتَمِروا، وعلى هذا: يكونُ في الآيةِ مجازٌ مُرْسَلٌ علاقتُهُ الملزوميَّةُ، فقد أُطْلِقَ المَلْزومُ وأُريد لازِمُهُ[1]، والأوَّلُ أَظْهَرُ؛ لأنَّه الأَنْسَبُ لِمَقامِ تَحْقيرِهِم، والأَنْسَبُ لِبَيانِ مكانَةِ المَسْجِدِ الحَرامِ.

### دلالَةُ الوَصْفِ في الآية:

بَيانُ عَظَمَةِ المَسْجِدِ الحَرامِ، وخصوصيَّتِه عندَ العظيمِ العلَّامِ

وُصِفَ المسجدُ بـ﴿ٱلْحَرَامَ﴾، في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾؛ لإرادَةِ تَبْيينِهِ وتَمْييزِهِ عن غيرِه؛ إذِ الحُكْمُ بالنَّهْيِ ليس عن قُرْبِ المساجِدِ كُلِّها، بَلْ عن قُرْبانِ مَسْجِدٍ خاصٍّ، وهو مسْجِدُ الكَعْبَةِ، ويُضافُ إلى ذلك معنى المدْحِ والتَّعظيمِ، فلا يَنْبَغي أن يَقْرَبَ هؤلاءِ الأنْجاسُ هذا المسْجِدَ العظيمَ القَدْرِ، الجَليلَ المكانَةِ، وإن كان بعضُ العلماءِ ذهب إلى مَنْعِهم مِن كلِّ المساجد، ولكنَّه خِلافُ الأولى؛ لأنَّ الرَّسول ﷺ، لَقِيَ وَفدَ نَصارَى نَجْران في المسجد، وهم على شِرْكهم.

### سِرُّ التَّعبير بلفظ: ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾:

الكعبة المشرَّفة هي البيتُ الحَرام، والمسجد الحَرام ما يُحيط بالكَعْبَة

في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾، آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بقوله: ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾، دونَ: (البيت الحرام)، مع استعماله للبيت الحرام في قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: 2]، وفي قوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: 97]؛ لأنَّ المسجد الحرام أعمُّ في الاستعمال مِنَ البيت الحرام؛ فالبيتُ الحرام يُطلق على الكعبة المشرَّفة، بما فيها مِنَ الحِجْرِ الشَّريف؛ بخلاف المسجد الحرام، فإنَّه يُطلق على المكان المحيط بها، مِن كلِّ الجهات، بل ويجوز إطلاقُه على كلِّ حدود الحَرم، والدَّليل على ذلك أنَّ موضع التِّجارات ليس في

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/261.

داخل المسجد، فلو كان المقصودُ المنعَ مِنَ المسجد خاصَّةً لما خافوا بسبب هذا المنع مِنَ العَيْلَة، وإنَّما يخافون مِن وقوع العَيْلة إذا مُنِعوا مِن حضور الأسواق والمواسم، وهذا يدلُّ على أنَّ المسجد الحَرام أوسع نطاقًا مِنَ البيت الحَرام، وممَّا يُؤكِّد ذلك توسعتُه بهذه المساحات الكبيرة؛ فالمسجدُ الحَرام أعمُّ مِنَ البيت الحَرام، وهذا هو المناسبُ لسياق الآية، في نَهْي قُربان المشركين عنِ المسجد الحَرام، في كلِّ معالمه وشعائِرِه.

### نُكْتَةُ حَذْفِ حَرْفِ الجَرِّ:

**المَنْعُ مِن قُرْبِ المُشْرِكينَ المَسْجِدَ الحَرامَ، يستغرق جَميعَ الزَّمن بإطلاق**

حُذِفَ حرفُ الجرِّ (مِنْ) مِن قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، فَلَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (فلا يقرَبوا المسْجِدَ الحرامَ مِنْ بَعْدِ عامِهم هذا)؛ لئلَّا يُخَصَّ بزَمانٍ مُعيَّنٍ، فإسْقاطُ الجارِّ يَقْتَضي اسْتِغْراقَ الزَّمانِ[1]، وفيه إشارةٌ إلى تحديد المدَّة، بمعنى أنَّه بعد انقضائها لا يجوز للمشركين أن يقتربوا مِنَ المسجد الحرام.

### سِرُّ التَّعْبيرِ بِلفظ (عام) دونَ لفظ (سنة):

**أهميَّةُ دِقَّةِ البَيانِ القُرْآنيِّ، في اخْتيارِ الأَلْفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها**

جاءَ التَّعبيرُ بالعامِ دونَ السَّنَةِ، في قول الله ﷻ: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، تَنْبيهًا لهم على حُسْنِ الزَّمانِ، واتِّساعِ الخَيْرِ؛ إذْ لَفْظُ العامِ مُشْعِرٌ بالخَيْرِ ورَغَدِ العَيْشِ، بخلافِ لَفْظِ السَّنَةِ[2]، وعَبَّر بالعام دونَ السَّنة؛ لأنَّ المراد به موسمُ الحجِّ؛ فأُمْهِلوا إلى بقيَّة العام؛ لأنَّ نهايته بانسلاخ ذي الحِجَّة؛ لأنَّ هذه الآية نزلت في العام التَّاسع مِنَ الهجرة، والمشركون قد حضروا موسمَ الحَجِّ فيه، وأُعْلِنَ لهم فيه أنَّهم لا يعودون إلى الحَجِّ بعد ذلك العام؛ لذلك كان التَّعبير بالعام هو المناسب لهذا المعنى.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/429.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/429.

### دلالَةُ إِضافَةِ لفظ (عام) إلى الضَّمير العائد على (المشركين):

الحُكْمُ القطعيُّ منذ ذلك العامِ، بمنع المشركين مِـــن دخـــول المسجد الحَرام

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، أُضِيفَ العامُ إلى الضَّمير الرَّاجِعِ إلى المُشْرِكينَ، لمَزيدِ اختصاصِهِمْ بحُكمٍ عظيمٍ هائلٍ في ذلك العامِ، وهو إبعادُهم عَنِ المسْجِدِ الحَرامِ وإقصاؤُهُم عنه[1]، ودلَّت هذه الإضافةُ على أنَّ الزَّمن كان قبل ذلك للمشركين، وهذا الإعلان مرحلةٌ فاصلة بانتهاء عهد الشِّرك في مكَّة ؛ فلم يَعُد لهم بعدَ هذا العام تَعلُّقٌ بموسم الحَجِّ، وأصبح التَّاريخ بعد ذلك للمسلمين، وفيه دلالة على سماحة الإسلام، في تعامله معَ المشركين بإعطائهم فرصة، وإلَّا كان مِنَ الممكن أن يُنَفَّذَ النَّهيُ في نفس العام، وقد يُعْقِب ذلك إراقةٌ للدِّماء، وانتهاكٌ لحُرمة المكان، وهذا ما لا يريدُه الإسلامُ.

### دلالَةُ اسْمِ الإشارَةِ (هَذا):

الأحْـــكـــامُ العَظيمَةُ تَحْتاجُ مَـزيـدَ بَـيـانٍ، لِتَحْقيقِ الأَمْـرِ وَإزالَةِ اللَّبْسِ

اسْمُ الإشارَةِ (هذا) من قول اللهِ ﷻ: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، في محَلِّ جَرٍّ، عَطْفُ بَيانٍ لِـ (عام)، أو بَدَلٌ مِنْهُ، ونُكْتَةُ إيرادِهِ زيادَةُ تمييزِهِ وبيانِهِ، وَتحقيقُ الأَمْرِ وإزالَةُ اللَّبْسِ[2]، وكأنَّه صار مرحلةً جديدةً في الزَّمن، يَتميَّز فيها عنِ الزَّمن السَّابق.

### دلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بِـ (إنْ) دونَ (إذا):

الجَزمُ بِأَنَّ الرِّزْقَ مِنَ اللهِ تعالى، يُنافي الخَوْفَ مِنَ الفقر

عُلِّقَ الشَّرْطُ في قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ بـ (إنْ) الدَّالَّةِ على الشَّكِّ في وقوعِ مَدْخولِها، دونَ (إذا) المُقْتَضيَةِ تحقُّقَ وقوعِ الشَّرْطِ، معَ أنَّ خَوْفَهُمُ العَيْلَةَ أمرٌ كانَ حاصِلًا؛ للإشْعارِ إلى أنَّ هذا الخَوْفَ لا يَنْبَغي أَنْ يقَعَ مِنْ أهلِ الإيمانِ؛ ليَقينِهِم بأنَّ الرِّزْقَ مِنَ اللهِ سبحانَه وَحْدَهُ، ولا يَصِحُّ أن يُرادَ بِها مَعْنَى (إِذْ)، على أنَّ المقصودَ: وإذْ خِفْتُمْ عَيْلَةً، لعَدَمِ وُرودِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/429، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160.

هذا المعنى في لسان العربِ، حتَّى إنَّ ابنَ عطيَّة قال عَمَّن زَعَمَ فيها هذا المعنى: "وهذه عُجْمَةٌ، والمعنى بارِعٌ بِـ (إِنْ)"[1].

### سرُّ التَّعبير بالخوف:

لا يُغْلَق بابُ الله، إذا بخلَ بالعطاء سواه

آثر السِّياقُ التَّعبير بالخوف، في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ دون غيره؛ لأنَّ الخوفَ تَوَقُّعُ المكروهِ في المستقبل، وذلك مِن خلال مَنْعِ المشركين الذين يَفِدون إلى موسم الحَجِّ للتِّجارة، وهذا يُؤَدِّي إلى الكساد وعدمِ تبادلِ المنافعِ بينَهم وبينَ المسلمين؛ فَراعَى القرآنُ الكريم الجانبَ النَّفْسيَّ عند المؤمنين بهذا التَّعبير؛ ليُطَمْئِنَ قلوبَهم بأنَّ الله ﷻ يعلم ما يختلج في صدورهم، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فقرًا وحاجةً مِن منع المشركين مِن قُربان المسجد الحَرام، بأن تنقَطِعَ الأسبابُ الّتي بينَكم وبينَهم مِنَ الأُمور الدُّنيَويَّة، فاعلموا أنَّ الله سوف يُغنيكم مِنْ فَضْلِهِ الواسع، ويرزقُكُم مِن عطائه الذي لا ينقضي[2].

### دلالةُ التَّعبير بالجَمْع:

التَّذكيرُ الجماعيُّ للأُمَّة يُصَوِّبُ النَّهْجَ، ويُصَحِّحُ العقيدةَ

دلَّ التَّعبيرُ بالجَمْع، في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾، على أنَّ أهل مكَّة أصبحوا جميعًا مسلمين، ولا مكانَ للشِّرك فيها، وأنَّ النَّهيَ مُوجَّهٌ فيها للقبائل الّتي كانت تَفِد إلى الحَجِّ، وما يحملونه مِنَ التِّجارات والمنافع، "قال ابن عبَّاس: كان المشركون يَجيئون إلى البيت، ويَجيئون معهم بالطَّعام، يتَّجِرون فيه، فلمَّا نُهُوا أن يأتوا البيتَ، قال المسلمون: فمن أينَ لنا الطَّعام؟ فأنزل الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾الآيةَ، قال: فأنزل اللهُ عليهم المطرَ، وكَثُر خيرُهم حين ذهبَ المشركون عنهم، وأسلمَ أهلُ اليمن، وجاءَهم النَّاس مِن كُلِّ فَجٍّ"[3].

### دلالة التَّعبير بالماضي:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، عُبِّر بالماضي الذي يُفيد

(1) ابن عطيَّة، المحَرّر الوجيز: 3/21.
(2) ابن عطيَّة، المحَرّر الوجيز: 3/21، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 2/654.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 10/89.

تَحقُّقَ الوقوعِ؛ لأنَّ المؤمنين خافوا بانقطاع المشركين عن دخول الحَرم، انقطاعَ تجارتِهم، وقالوا: مِن أينَ لنا الإتيانُ بالطَّعام؟ فكان التَّعبير بالماضي مخبرًا بالخاطر النَّفسيِّ وإن لم ينطقوا به، وهو أيضًا إخبارٌ بخبايا الأنفس، وهواجسِ الأوهام، والخوفِ مِنَ الزَّمان وتقلُّباته وأحواله.

لا خوفَ مِن تأخُّر الأرزاقِ، فاللهُ هو الضَّامِنُ الرَّزَّاقُ

### سِرُّ التَّعبير بلفظ (العَيْلَة) دونَ لفظ (الفقر):

قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، آثَر السِّياق فيه التَّعبيرَ بـ (العَيْلَة) دون (الفقر)، وإن كان بينهما اشتراكٌ في المعنى؛ لأنَّ العَيْلَة أخصُّ مِنَ الفقر؛ فيُقال: عال الرَّجل، إذا افتقر، يقال: يَعيل عَيْلَةً، فهو عائل؛ فكأنَّ الحاجةَ هنا جاءت مِن كثرة ما يَعيل، وأيضًا أنّه يأتي بمعنى فقدان القُدْرة على الإنفاق، بخلاف الفقر، فمعانيه متعدِّدَةٌ؛ فيُطلق على عدم المقتنيات، وعلى فَقْر النَّفس، وعلى عدم وجود الحاجة الضَّروريَّة، وإلى الافتقار إلى الله ﷻ، كما في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: 24]، وهذه المعاني لا تتأتَّى معَ العَيْلَة.

انتقاءُ المفردَةِ الأكثرِ ملاءَمَةً للمعنى، مِن بيانِ القرآن الأسمى

### نُكْتَةُ تَنْكير ﴿عَيْلَةً﴾:

نُكِّرتَ كلِمَةُ ﴿عَيْلَةً﴾ في قول اللهِ ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لقصدِ التَّعظيم، أي: وإن خِفْتُم عَيْلَةً عظيمَةً، فسَوْفَ يُغْنيكُمُ اللهُ تعالى مِنْ فضْلِه، فكَيْفَ إذا كانَتِ العَيْلَةُ المَخوفَةُ دونَ ذلِكَ؟! وفيه دلالة على العموم في أمر العَيْلَة، قليلةً كانت أو كثيرةً، كانت بسبب وُفُود المشركين للحَجِّ، أو بسبب فقدانِكُم لكَسْب المال بمنعهم مِن ورود المسجد الحَرام؛ فاللهُ يُغنيكم مِن فضله.

قَضْدُ تَعْظيمِ العَيْلَةِ؛ تَهْوينًا لِشَأْنِ ما دُونَها

### سِرُّ اقْتِرانِ الجَوابِ بِلفظ: (فسَوْفَ):

جوابُ الشَّرْطِ في قول اللهِ سبحانَه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾، جملةٌ خبريَّةٌ، اقْتَرَنَتْ بحَرْفِ الاستقبالِ ﴿فَسَوْفَ﴾،

اقْتِلاعُ الخَوْفِ مِن قُلوبِ المُؤْمِنينَ، مِن رَأْفَة الله بهم

وهو دالٌّ على تأكيدِ وُقوعِ مَضْمونِ الخَبَرِ في المُسْتَقْبَلِ[1]، وهو إغْناءُ اللهِ تعالى إيَّاهُمْ مِنْ فضْلِهِ، ونُكْتَةُ التَّأكيدِ: اقْتِلاعُ الخَوْفِ الذي ألقاهُ الشَّيطانُ في قلوبِهِمْ، مِنْ أَصْلِهِ.

**سرّ التّعبير بقوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ دون (السّين):**

وعـــد الـلـه بالتّكفّل بالإغناء من فضله، يسع الزّمان كلّه

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾، آثر السّياق التّعبير بلفظ (سوف) دون(السّين)، وإن كانت للقرب ؛ لأنّ قوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ تدلّ على وجود زمن يمرّ ولكنّه زمن قريب؛ لأنّ الإغناء الّذى سيأتى، له أسباب كثيرة، كفيلة بتحقيقه، كأن يعوّضهم اللّه عمّا كان يأتي به الكفّار، من نزول الماء من السّماء، فينبت به النّبات، وهذا يحتاج إلى زمن، أو أن تحمل إليهم التّجارات من بعض القبائل الّتي أسلمت وحملتها إلى مكّة، وحدثت بعد ذلك الفتوحات الإسلاميّة، فكان التّعبير بقوله: ﴿فَسَوْفَ﴾، للدّلالة على امتداد زمن العطاء.

**سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿يُغْنِيكُمُ﴾ دون (يَكْفِيكُمْ):**

الغنى مِن فضل الـلـه مَـديـدٌ، واللهُ هو الغنيُّ الحميد

في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾، آثَر التَّعبيرَ بقوله تعالى: ﴿يُغْنِيكُمُ﴾ دون (يَكْفِيكُمْ)؛ لأنَّ الغنى يُقال على ضروب مُتعدِّدة؛ أحدها: عدمُ الحاجات، وليس ذلك إلَّا لله تعالى، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: 15]، الثَّاني: قِلَّةُ الحاجات، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضّحى: 8]، الثَّالث: كَثْرَةُ المقتنياتِ بسبب ضروب النَّاس، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ﴾ [النّساء: 6]، وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: 273]، أي: لهم غنى النَّفس، أمَّا الكفاية: فتُطلَق على ما فيه سَدُّ الخَلَّة، وبلوغُ المرادِ في

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3274.

الأمر، قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: 25]، والكُفْيَةُ مِنَ القُوت: ما فيه كفايةٌ[1]، ومِن خلال هذه المعاني يتَّضِحُ أنَّ لفظ الغنى أعمُّ، والكفايةِ أخصُّ؛ لذلك آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالغنى في قوله تعالى: ﴿يُغۡنِيكُمُ﴾، لما يحملُه مِن هذه المعاني الّتي تُطَمْئِنُ نفوسَ المؤمنين؛ وهذا ما حدث لهم، حيثُ أرسل اللّهُ السَّماء عليهم مدرارًا، وفتحَ أبوابَ العطاءِ، وَوَفَّق أهلَ نَجْدٍ وتَبَالةَ[2] وجُرْشٍ[3]، فأسلموا وحملوا إليهم الطَّعامَ، وما يحتاجون إليه في معاشهم[4].

### دلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ (الله) بِالْعَلَمِيَّةِ:

عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالعلَميَّة، في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾؛ لبيانِ عَظَمَةِ هذا الإغْناءِ وفخامَتِه، فهوَ إغناءٌ لا فَقْرَ ولا عَيْلَةَ بَعْدَهُ؛ إذْ هوُ إغْناءٌ مِنْ عند ذي الجلالِ والإكْرام[5]؛ مَن لَهُ صفاتُ الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ، والصَّادِرُ مِنَ العَظيمِ عظيمٌ.

إغْناءُ اللهِ تعالى لِعبادِهِ عَظيمٌ، لا يَطَالُهم مِن بَعْدِهِ الفَقْرَ الفقرُ الذَّميم

### دلالَةُ (مِنْ) في قوله: ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾:

يُحْتَمَلُ في (مِنْ) في قولِ اللّه سبحانَه: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾ ثلاثَةُ أَوْجُهٍ[6]؛ أحدُها: أن تكون ابتدائيَّةً. ثانيها: أن تكون تبعيضيَّةً، وهذانِ المَعْنيانِ يَتأَتَّيانِ إذا حُمِلَ الفَضْلُ في قوله ﷻ: ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، على معنى العَطاءِ، والمعنى: يُغْنيكُمُ اللّهُ سبحانَه غناءً مِنْ جُملَةِ ما عِنْدَهُ مِنَ العطاءِ الكثيرِ، أو أنَّ هذا الإغْناءَ مُبتدَأٌ وصادِرٌ مِنْ عِنْدِهِ سبحانَه. ثالثُها: أن تكون سبَبيَّةً، إذا حُمِلَ الفضْلُ

أَثَـرُ مَعـاني الحُروفِ في بَيانِ الدَّقائِقِ القُرْآنيَّةِ

(1) لرَّاغب، المفردات: (غنى، كفي).
(2) موضع ببلاد اليمن. يُنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: 2/9.
(3) من مخاليف اليمن من جهة مكّة، وهي في الإقليم الأوّل، وقيل: إنَّ جُرَش مدينة عظيمة باليمن وولاية واسعة. ياقوت الحموي، معجم البلدان: 2/126.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/77.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/433.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/270.

في قوله تعالى: ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ على معنى التَّفضُّل، والمرادُ: يُغْنيكُمُ اللّٰهُ سبحانَه بسبَبِ تفضُّلِهِ عليكم بوجهٍ آخرَ مِنْ أَوْجُهِ الرِّزْقِ، وهذهِ المعاني متكاملَةٌ غيرُ مُتَنافيَةٍ، فيجوزُ أن تُحْمَلَ الآيَةُ عليها جميعًا، مِنْ بابِ حَمْلِ اللَّفْظِ على جَميعِ مَعانيه التي دلَّ عليها.

### سِرُّ التَّعبير بالفضل:

فضلُ الله عطاءٌ ومَـدَدٌ، يناله صاحبُه وإن طال الأَمَد

أُوثِر التَّعبيرُ بالفضل في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾؛ لأنَّه يحمل معنى العطاء، ويأتي بمعنى الإحسان بلا عِوض؛ وفي هذا تكريمٌ للمؤمنين، وإعلانٌ بسعة العطاء؛ حتَّى تندحر وساوسُ الشَّيطان مِن نفوسهم. وفضلُه تعالى له أشكال مِنَ العطاء اللَّامحدود، وهو رزقٌ بالأسباب، أو رزقٌ من حيثُ لم يحتسبوا، والواقع أنَّهم لمَّا خافوا انقطاعَ الرِّزق بمنع المشركين من دخول الحَرم، طمأنَهم على مصيرهم، "فوعدهم اللّٰهُ بأنْ يغنيَهم من فضله، قال الضَّحَّاكُ: ففتح عليهم بابَ أَخْذِ الجزية مِن أهل الذِّمَّة، وقال عِكْرِمَةُ: أغناهم بإدرار المطر عليهم، قال القاضي أبو محمَّد: وأسلمتِ العربُ فتمادى حَجُّهم وتَجْرُهم، وأغنى اللّٰهُ من فضله بالجهاد والظُّهور على الأمم"[1].

### دلالَةُ الإضافةِ:

اخْتِصاصُ رِزْقِ العِبادِ باللهِ سبحانَه، ضمانٌ للرِّزق مَدى الحياة

أُضيفَ الفَضْلُ إلى الضَّميرِ العائدِ إلى اللّٰهِ ﷻ، في قوله سبحانَه: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾؛ لِلْإِشْعارِ بأنَّ مَن أَلْقَى هذهِ الشُّبْهَةَ، وهذا التَّشْكيكَ والخَوْفَ في قلوبِكُمْ لا يَرْزُقُكُم، وإنَّما الرَّزَّاقُ هو اللّٰهُ سبحانَه؛ يَرزُقُ العبادَ مِن فضْلِهِ وعَطائِهِ وإحسانِهِ[2]، والرِّزقُ مسطور في القَدَر، قال الشَّاعر[3]:

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/21.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3274.
(3) البيت منسوب للإمام الشَّافعيّ، ينظر: نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم: 3/371.

لا تَعْجَلَنَّ فَلَيْسَ الرِّزْقُ بِالعَجَلِ *** الرِّزْقُ فِي اللَّوْحِ مَكْتوبٌ مَعَ الأَجَلِ
فلَوْ صَبَرْنا لَكانَ الرِّزْقُ يَطْلُبُنا *** لَكِنَّهُ خُلِقَ الإِنْسانُ مِنْ عَجَلِ

### دلالَةُ الجملة الخَبَرِيّة:

إزالَــةُ الـخَـوْفِ وإِخــــــلالُ الطُّمَأْنينَةِ على قُـلوبِ العِبادِ، مـن رحـمـة الله عليهم

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾، جملةٌ خَبَريَّةٌ، يُرادُ بها إعلامُ المخاطَبِ بما تضمَّنَتْهُ هذه الجملَةُ مِنَ الغَيْبِ المستقْبَلِ على جِهَةِ الجَزْمِ في أمرٍ عظيمٍ، ويُرادُ بها أيضًا: إزالَةُ الخَوْفِ وإحلالُ الطُّمأنينَةِ على قلوبِ العِبادِ، فكانَتِ الجملَةُ جاريَةً على مَعْناها الأَصْليِّ، مع ضميمَةِ مَعْنًى فَرْعيٍّ، فهي بالاعتبارِ الثَّاني مجازٌ مرسَلٌ مركَّبٌ، وقد وقع الأمرُ مطابقًا للخَبَرِ، فكان ذلكَ مِنَ الإعْجازِ[1].

### نُكْتَةُ تَعْليقِ الإِغْناءِ بِالْمَشيئَةِ:

تَعْليمُ العِبادِ رِعـايَـةَ الأَدَبِ، وأن يـتَّـقـوا ويُـجـمـلـوا في الطَّلَبِ

عُلِّقَ إغناءُ اللهِ ﷻ إيَّاهُمْ على مشيئَتِهِ، فقال سبحانَه: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾، مع أنَّ تعليقَ ذلكَ على المشيئَةِ قد يَمْنَعُ من إفادَةِ غرضِ الخبَرِ، وهو إزالةُ الخَوْفِ مِنَ الافْتِقارِ، وفي ذلك نِكاتٌ[2]؛ أوَّلُها: التَّنْبيهُ على أنَّ ذلكَ محضُ تفضُّلٍ منه سبحانَه على عبادِهِ المُؤمِنينَ. وثانيها: لأجلِ أنْ يقطَعوا النَّظَرَ عن غيرِ اللهِ تعالى، وتَنْقَطِعَ الآمالُ إلى اللهِ ﷻ، فيكون العبدُ دائمَ التَّضرُّعِ إلى اللهِ سبحانَه في طلب الخَيْراتِ ودَفْعِ الشُّرورِ والآفاتِ. وثالثُها: الإيماءُ إلى أنَّ هذا الإغناءَ، ليس مُطَّردًا بحسَبِ الأفراد والأحوالِ والأزمانِ. ورابعُها: تعليمُ العبادِ رعايَةَ الأدبِ معَ اللهِ ﷻ، كالوارِدِ في قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: 27].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/23.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/23، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/433، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/57، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/270.

### دلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾، إيجازٌ بالحذْفِ، حيثُ حُذِفَ مَفْعولُ المشيئَةِ، والتَّقديرُ: فسوفَ يُغْنيكُمُ اللهُ مِنْ فضلِه إن شاءَ إغْناءَكُمْ؛ وإنَّما حُذِفَ اكتفاءً بدلالَةِ صَدْرِ جُملَةِ الشَّرْطِ عليه.

طَيُّ الأَلْفاظِ الَّتي دَلَّتِ القَرائِنُ عليها، نوعٌ مِنَ الاقْتِصادِ في الكَلامِ

### عِلَّةُ الفَصْلِ في الآية:

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ لوقوعِهِ تَعْليلًا لإظْهارِ عِلَّةِ ما قَبْلَهُ[1]، وذلك أنَّ الإغْناءَ بَعْدَ انقطاعِ أسبابِهِ المألوفَةِ الماديَّةِ قد يكونُ مُسْتَبْعَدًا، فاحتيجَ إلى بيانِ العِلَّةِ زيادَةً في تَطْمينِ قُلوبِ العِبادِ.

عَظيمُ فَضْلِ اللهِ تعالى بالنَّصِّ على العِلَّةِ؛ زيادَةٌ في تَطْمينِ قُلوبِ عِبادِهِ

### سِرُّ تَأْكيدِ الجُمْلَةِ:

أُكِّدَتِ الجملَةُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بـ (إنَّ)، وأوردت اسميَّة، وصُدِّرت بالاسم الأعظم (اللهِ)؛ تقويَةً لوَعْدِ اللهِ سبحانَه[2]، وترسيخًا لأثَرِ هذينِ الاسمَيْنِ الحُسْنَيَيْنِ في قلوبِ العبادِ، وإزالَةً لِما قَدْ يعرِضُ في قلوبِهم مِنَ الشَّكِّ والتَّرَدُّدِ في إغناءِ اللهِ تعالى إيَّاهُم بعد انقطاعِ الأسبابِ الظَّاهِرَةِ.

تَرْسيخُ أَثَرِ اسْمَيِ اللهِ تعالى: (العَليمِ) و(الحَكيمِ) في قُلوبِ العِبادِ

### نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

في قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضْمارِ، وذلك أنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (إنَّهُ عليمٌ حكيمٌ)؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ الاسْمِ الأعظم (اللهِ)، في قولِه: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾، والنُّكْتَةُ في ذلك: تعظيمُ شَأْنِ الوَصْفَيْنِ اللَّذَيْنِ دَلَّ عَلَيْهِما اسْما اللهِ: العليمُ والحكيمُ؛ وهُما: العِلْمُ والحِكْمَةُ، فَفُخِّمَ حالُهُما وَقَدْرُهُما، بإسنادِهِما إلى صريحِ

تَفْخيمُ صِفَتَيِ العِلْمِ والحِكْمَةِ، ودلالَةُ وَصْفِه ﷻ بهما

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/433.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3274 - 3275.

الاسْمِ الأَعظم دونَ الضَّميرِ الرَّاجِعِ إليه، فَهُما وصْفانِ عظيمان؛ لصدورِهِما ممَّن جمعَ صِفاتِ الجلالِ والجَمالِ والكمالِ.

### دلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَتَيِ المُبالَغَةِ:

في بِناءِ اسْمَيِ اللهِ تعالى: (العَليم) وَ(الحكيم)، من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، علَى أمثلَةِ المبالغَةِ، دِلالَةٌ على سعَةِ العِلْمِ وعِظَمِ الحِكْمَةِ وكثْرَتِهما، ومن رحمة اللهِ بالعباد، أنَّه عليم بأحوالهم، وبما يصلح لهم، ومتصرِّف بحكمته في تسيير القدر، وفي العطاء والمنع لما يحتاجه البشر، وذلك محض اللُّطف بهم، وقد قيل: "من أناخ بعقوة[1] كرم مولاه، واستمطر سحابَ جُوده، أغناه عن كلِّ سبب، وكفاه كلَّ تعب، وقضى له كلَّ سُؤلٍ وأرَب، وأعطاه مِن غير طلب"[2].

**اللهُ ﷻ واسِعُ العِلْمِ، وعظيمُ الحِكْمَةِ، وفي ذلك نفعُ البشر**

### بَراعَةُ التَّذْييلِ:

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذْييلٌ جارٍ مجرَى المثَلِ؛ لاستقْلالِهِ بالإفادَة، وعَدَمِ احتياجِهِ إلى ما قبلَه في فهمِ تمامِ المُرادِ منه، وفيه إشْعارٌ بِسَعَةِ عِلْمِ اللهِ ﷻ ودَقيقِ حِكْمَتِهِ سبحانَه، فقولُهُ تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: عليمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، ﴿حَكِيمٌ﴾ يَضَعُ الأُمورَ في مَواضِعِها اللَّائقَةِ بها.

**سَعَةُ عِلْمِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ سبحانَه، يستوعبان العطاءاتِ والألطافَ**

## ❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

### العامُ والسَّنَةُ:

العامُ والسَّنَةُ بِمَعْنًى مُتَقارِبٍ؛ إذْ كلاهُما دالٌّ علَى مُدَّةٍ مَخْصوصةٍ مِنَ الزَّمَنِ، تَسْتَغْرِقُ اثْنَيْ عشَرَ شهْرًا، إلَّا أنَّهُ يُغايِرُ بينَهُما في غَلَبَةِ الاسْتِعْمالِ، فالغالِبُ اسْتِعْمالُ السَّنَةِ في الحَوْلِ الذي فيه الجَدْبُ والشِّدَّةُ، ولِذا يُطْلَقُ على الجدْبِ: السَّنَةُ، كما

(1) العَقْوةُ والعَقَاةُ: السَّاحة وما حوْلَ الدَّارِ والمَحَلَّة. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (عقا).
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 6/3274 - 3275.

تُستخدم (السَّنَةُ) للتَّعبير عن الجَدْبِ والشِّدَّةِ، ويُستعمل (العام) للسَّعة والخِصب

قالَ اللهُ سبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، أي: بالقَحْطِ والجَدْب، والغالِبُ في لفظِ العامِ استعْمالُهُ في الرَّخاءِ والخَيْرِ والخِصْب[1]، ويَجْمَعُ ذِكْرَ العامِ والسَّنَةِ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: 47 - 49]، فعُبِّر بالسِّنينَ عن زَمَنِ الاجْتِهادِ في الزَّرْعِ، مَعَ عَدَمِ الاسْتِمْتاعِ الكامِلِ بما حُصِدَ منه، استِعْدادًا للأَزْمِنَةِ القادِمَةِ، ثُمَّ عُبِّر عن الأَزْمِنَةِ الشِّدادِ بالسِّنينَ أيضًا في قوله: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾، أي: سَبْعُ سِنينَ؛ لحذْفِ التَّاءِ في العَدَدِ، فذلكَ مُقْتَضى أنَّ مفرَدَ المعدودِ مؤنَّثٌ، وهو لفظُ سنَةٍ، ثُمَّ عُبِّر عن الزَّمَنِ الذي يكونُ فيه الفرَجُ بالعامِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، وقد اجتَمَعَ ذِكْرُ العامِ والسَّنَةِ أيضًا في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14]، فعُبِّر بلفظِ السَّنَةِ ذَمًّا لأيّامِ الكُفْرِ والتَّكذيبِ، وبلفظِ العامِ في الاسْتِثْناءِ إيماءً إلى أنَّ زمَنَ حَياةِ نوحٍ عليه السلام بَعْدَ إغْراقِهِمْ؛ كانَ عيشًا رَغيدًا واسِعًا حَسَنًا، بإيمانِ المُؤمنينَ، وخِصْبِ الأَرضِ[2].

(1) الرَّاغب، المفردات: (عوم)، والسُّيوطيّ، الإتقان: 2/368، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 21/356.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/404.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
---
227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث
---
الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»